**الأغنية الشعبية**

1. **مفهومها:**

تعد الأغنية ركنا من أركان الثقافة الشعبية المغاربية، ولوحة فنية تعكس جانبا من عاداتنا وتقاليدنا، وتاريخنا، الأمر الذي يجعلها في متناول الجميع.

يعرفها أحد الباحثين قائلا: «الأغنية الشعبية هي قصيدة ملحنة مجهولة المؤلف نشأت بين العامة من الناس في أزمنة ماضية وبقين متداولة أزمانا طويلة»، في حين يقول " أحمد مرسي" : «الأغنية هي المرددة التي تستوعبها حافظة الجماعة تتناقل آدابها شفاها وتصدر في تحقيق وجودها عن وجدان شعبي»، ويقول آخر: «الأغنية الشعبية بسيطة الأسلوب بدائية الآلات الموسيقية وتعبيرها مباشر عن لحظات الوجدان والانفعال والتأثُّر مما يجعل نصوصها يغلب عليها المزاج الفردي».

فالكلمة واللحن حافظت الأغنية الشعبية على التاريخ الثقافي للأمم والشعوب والحضارات واستطاعت أن تنقل كثيرا من التجارب الإنسانية ( الألم والفرح) بكل صدق وأمانة كما عبرت عن خصوصيات المجتمعات البدائية والمتحضرة عن طريق تصوير البنى الثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

أعطتنا الأغنية الشعبية صورة واضحة عن مراحل التطور الإنساني عبر الأزمنة «فالإنسان عرف الغناء أصواتا منغمة قبل أن يهتدي إلى الكلام فعبر بالأصوات البسيطة عما يجيش في صدره من دوافع اللذة والألم والميول والرغبة».

ونظرا لأهمية هذا الشكل التعبيري أفردت له جهود خاصة باعتباره يجمع بين الكلام واللحن والرقص والآلة الموسيقية، وأول دراسة تجدر الإشارة إليها هي دراسة الباحث "هاردر" الذي ألف كتابه الشهير " أصوات الشعوب من أغانيها" وقد ضم فيه الأغاني التي جمعها ورأى أنها تعكس روح الشعب الألماني، وتدل عليه أكثر من غيرها من ألوان التعبير الخاص.

فعلا تعد الأغنية معيارا حقيقيا للعرف على ذوق الشعوب وحضارة الأمم، إنها صورة مباشرة لاهتمامات الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم، وكل ما يشكل أساسيات الحياة في ذلكم المجتمع، فمن خلال تركيبها وإيقاعها ولحنها، يمكن التعرف على المستوى الفكري للمجتمع.

ومن المهم الإشارة إلى أن الساحة الأدبية العربية والمغاربية لم تعرف مصطلح " الأغنية الشعبية" إلا حديثا بعد أن ترجم عن المصطلح الألماني " Volkleid" الذي قدمه "هاردر" ليتبناه في الأخير الباحثون ويترجمونه إلى مختلف اللغات، والأغنية الشعبية تعبير يتيح لنا تصور شعب تبنى أغنية فلحنها وأداها فحفظها وشاعت وسط الجماعة فرددوها وما كان بقاؤها المتوارث لولا هذا الترديد، لكن تجدر الإشارة إلى التحويرات فما من أغنية حافظت على أصالتها، وهذا دليل على تجاوزها للزمن الذي أنتجت فيه، إلى زمن آخر، ويدل هذا على أنها تمتلك روح التجدد والتأقلم مع الأجيال اللاحقة.

1. **الخصائص الفنية للأغنية الشعبية:**

رغم التنوع الموجود في موضوعات الأغنية الشعبية، إلا أنها تشترك في نفس الخصائص الفنية، بدءا من النص مرورا ببنائها اللحني والإيقاعي، وانتهاء بأسلوبها الأدائي.

* جزالة المعنى ورقة اللفظ.
* العفوية: لأنها منبعثة من الذات الشعبية غير المعقدة الدافقة بأحاسيسها دون تكلف وتنميق، لذلك فإننا نجد أن كلماتها في اغلبها بسيطة وفي فحواها عميقة وصادقة في التعبير.
* الجماعية: الأغنية الشعبية جماعية بمعنى أن نصها وإن كان يعود إلى فرد، إلا أنها تذوب في الروح الجماعية وتصبح قابلة للتبديل والتعديل والإضافة.
* ألوانها وطبوعها كثيرة تشبه ألوان الصناعة الشعبية الريفية.
* الأغنية الشعبية ذاتية لأنها تصدر عن وجدان الإنسان معبرة عن آماله وآلامه، ثم يتناقلها الشعب بعد أن يستوعبها فتصبح ملكا له.
* ليس الفرح هو المزاج العام للأغنية الشعبية، فهناك بعضا منها تغلب عليه قسوة الحياة ومراراتها، غن لم نقل مأساتها.
* من حيث الأسلوب بسيطة، غير معقدة، مسجوعة، تغلب عليها المعاني العميقة.
* اللهجة المحلية: تمتاز الأغنية الشعبية باللهجة المحلية الخاصة بكل منطقة مغاربية، وهذا راجع بالأساس إلى اختلاف اللهجات والعادات والتقاليد حتى في البلد الواحد، كما يرتبط بأداء الأغنية الشعبية المغاربية ارتداء شكل خاص من اللباس يكون في الغالب اللباس المحلي الذي ينتمي إليه المغني أو الفرقة الشعبية، أو لباس قديم تناساه الناس ويريد المغني أن يبين عراقته، ففي الجزائر مثلا يرتدي المغنون: القندورة والشاش والبرنوس، وفي المغرب يرتدون الجلابة والطربوش، وفي تونس يرتدي المغنون البلوزة والجبة والسروال التقليدي والقشابية والبرنوس.

1. **أشكالها:**

تجدر الإشارة إلى شكلين أساسيين من الأغاني:

1. **الأغنية الفردية:** هي تلك الأغاني المؤداة فرديا بل تلك الأغاني التي صدرت عن مؤلف واحد وأكثر من ينسب إليهم هذا النوع هم النساء، حيث كانت المرأة منذ القديم تعبر عما يختلج نفسيتها الداخلية من أفراح وأحزان عن طريق **الدندنة** وهذا ما كان يطلق عليه قديما "الدندنات" التي كانت تؤديها الأمهات والجدات للأطفال، بالإضافة إلى "المهدهدات" ونواح الأمهات وغناء العجائز والندب، كما يمكن الإشارة إلى أغاني الترقيص والتنويم التي كانت ترددها الأم من أجل تنويم صغيرها وإسكاته تعبر من خلالها عن حبها وتعلقها به، وهو ما يطلق عليه مصطلح "التراري"، فإذا مرض ليلا تقوم بعنايته وتبدأ بالغناء قائلة:

يا باري يا باري يـــــا رقــــــاد الـــذرار

يا باري ويبربرك نطلب رب يسلمك

يسلمك وينجيك ويحيد لبــــلا عليك

تحمل الكلمات معاني الحب والخوف على الأبناء. وتقول أيضا:

ياوليـــدي ياولــــيــدي يا كحل الحاجب والعين

يــاوليـــدي ياوليــدي يـــا لـــوكان المـــــال بيدي

نجيب عروسة لوليدي.

تتنوع الأغاني الفردية فنجد مثلا أغاني المديح ( مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته)، وتكون مأخوذة من بعض القصائد التي ألفها الشعراء تعبيرا عن العواطف الدينية، مثل قول لخضر بن خلوف في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم:

مدحي مفروز كي لحليب بْيَضْ صَافي صـــافي من عسجد القطوف

نمـــــــــدح ســـــــيــد لعباد طــه المقــــــطــــــــافي مـــــــدامـــــــــــت عـــــيني تشــــوف

ويوجد نوع آخر من الغناء الفردي يؤديه الرجل عند ركوبه الفرس ويسمى في الغرب الجزائري "**بالتعياط**" كمصطلح نعني به صاح، والعامة تقول: عيط له أي ناداه، وعيط القوم صاحوا، والتعياط هو نوع من الموال تتميز به مناطق الغرب والشرق الجزائري، في مناسبات تقليدية كالفروسية والوعدة، حيث تبدأ جماعة الفرسان في السماع إلى تعياط أحدهم، وعند نهايته تطلق نار البنادق وتشرع النسوة في الزغاريد، تقول " نبيلة إبراهيم" «أفضل ما يلاءم الغناء الفردي في هذه الحالة هو الموال».

1. **الأغنية الجماعية:** تقوم بها مجموعة من النساء أو الرجال في شكل أغاني جماعية تغنى حسب مواضيع ومنابات الأغنية، وتكمن وظيفتها في الترفيه والتسلية والإشادة بالقيم الأخلاقية والاجتماعية، يتم التحضير للأغنية الجماعية في اجتماع المغنين في شكل حلقة لتحضير أنفسهم واختيار الأغنية المناسبة وكيفية أدائها، وبعدها ينقسمون إلى صفين يتقابلان وجها لوجه، وقد تشارك النساء كذلك بالرقص والغناء والزغاريد، يبدأ الصف الأول بترديد المقطع الأول، ثم يردد الصف الثاني المقطع الثاني، ليعيد الصف الأول ترديد المقطع الأخير، ويعطي الكلمة للصف الأول ليبدأ مجددا بأداء المقطع الأول، وهذه هي صيغة أداء الأغاني الجماعية.ويطلق على الأغاني الجماعية تسميات مختلفة منها : الرحابة، الذكارة، السباحة.
2. **مضامينها (موضوعاتها):**

لاشك أن المبدع الشعبي للأغنية أثرى بمخيلته أغانيه، فانعكست فيها آمال الشعب وأحلامهم وآلامهم كما حملها مجموعة العادات والتقاليد وكل ما يدور في الحياة اليومية، وتم تناقل الأغنية من الآباء إلى الأبناء ومن الأمهات إلى البنات، وحملت في طياتها معان وأفكار يتحلى بها المجتمع، فاختلفت وتنوعت حسب المواضيع. ويمكننا أن نقسم هذه المواضيع إلى الأقسام الآتية: الأغاني الدينية، وأغاني العمل، وأغاني الأفراح، والأغاني الثورية.

* **الأغاني الدينية:** هي تلك الأغاني التي تناولت المواضيع الدينية على اختلافها كالدعاء والتضرع إلى الخالق، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، مثال:

افـــــــــــرح يــــا قـــــــلــــبــــي واللــــيلة زاد النــبي

خويا الشيخ العربي فيدو شمعة تقدي

**ومثال آخر:** أغنية معروفة في الغرب الجزائري باسم "التبراش"، حيث تتجمع النسوة وتشعل الشموع وتبدأ بالغناء بذكرالرسول صلى الله عليه وسلم تقول:

يا عيشة لا تـــرقـــــدي ياعيشة لا ترقدي

حلي الباب واصنتي والليلة يزيد النبي

البارح زاد وتســــمـى والجمـــاعة متـــلمـــة

والهدف الرئيسي من هذه الأغاني هو إيقاظ الروح الدينية وانفتاح الوعي الإسلامي.

* **أغاني العمل:** هي تلك الأغاني التي يرددها النساء والرجال أثناء العمل، خاصة العمل الزراعي كمواسم الزرع والحصاد، وعادة تؤدي في عمليات جماعية تعاونية تسمى **بالتويزة،** وتنحصر وظيفتها الأساسية في تسهيل وتخفيف عناء العمل وحث الجماعة على الاستمرار والصبر بإيقاع موحد ومتناسق، فالفلاحون كثيرا ما يستعينون بالأغاني في أعمالهم اليومية أو الموسمية، ويضطر المغني أن يضيف إلى الأغنية كل ما يطرأ على ذهنه من كلام، مادام هذا الكلام صالحا لان ينساق مع لحن الأغنية، كما أنها تؤدى بدون آلات موسيقية.
* **أغاني الأفراح:** هي تلك الأغاني التي تؤدى في الأفراح المختلفة من زواج وختان وخطوبة، ويصاحبها الرقص الذي يثير الإحساس بالسعادة والابتهاج، ومن بين هذه الأغاني تلك التي تم ذكرها باسم مصطلح " أغاني الذكارة والرحابة والسباحة"، أو أغاني الصف، مثال ذلك: في الجزائر أغنية الحنة**:**

الحنة لحنـــينة جابوها الرجال في ديك يا لعروسة تطلاع وتحمار

وفي تونس نذكر:

حني يا لبنية في صحن بلار في يديك يالبنية نشا الله تحمار

حني يالبنية في صحن بلار حنة قــابســـية جــــابـــوهــــا التـــجار

* **الأغاني الثورية:** تحمل الأغنية الثورية في طياتها كل التضحيات والمقاومات التي قام بها المجاهدون، وبسالتهم في مقاومة القوات الفرنسية، فقد واكبت الأغنية مختلف الأحداث التي عاشها الشعب الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي فعكست صراعاته الداميةمع محاولات المسخ لمقوماته العربية والإسلامي، كما سجلت طموحاته وأفراحه إلى جانب خيباته وهوانه، فاتخذت من الكلمة العفوية الصادقة والصوت القوي الرنان سلاحا فعالا لإثارة حماس الناس، وشحذ هممهم وعزائمهم للتضحية والفداء من اجل الوطن، ودحر العدوان الغاشم عن الشعب والأرض، فكانت الجماهير تتغنى فرادى وجماعات بكلمات تلهب المشاعر وتتصدى للجبروت والطغيان، واستطاعت بذلك أن تكون ملحمة ثورية شعبية خالدة تحقق التواصل بين الجماهير والمقاومة المسلحة، مثال:

**ليشار قدام الدار**

**والسلسة توزن قنطار**

**لا قدمنا شعلت النار**

**ولا وخَّرنا هذاك العار**